

تغريدة الصباح

الكتب.. ثروة الذهب!

حسن حميد

بلادهم، فتصير هذه الكتب فضاءً للترجمة، وفضاءً للتأخي، والتألف، والتعارف، وسعيًا لبناء صرح ثقافي إبداعي عالمي، يقوم على مفهوم المثاقفة.

أقول كل هذا، وأنا أرى حال معارض الكتب في أيامنا الراهنة، وقد اقتضرت على بعض جوانب الأهمية المرادة من هذه المواسم، وأبداها هو الجانب الاقتصادي، أي البيع والشراء، بوصف الكتاب سلعة للتسويق والتجارة، وحول هذا البعد الاقتصادي يدور السؤال الأكثر علوًا في معارض الكتب، فمريدو الكتاب يريدون الكتاب بثمن أقل مما تطلبه دور النشر، ودور النشر تسعى إلى الربح من خلال هذه السوق الثقافية المهمة المفتوحة في هذا البلد أو ذاك، وهي تشتكي من غلاء صناعة الكتاب، وهي محقة، وتؤكد بأن هذا الربح من وراء بيع الكتاب سيوظف لتطوير الثقافة، وإعلاء شأن الإبداع حين تطبع الكتب الجديدة، وهي محقة أيضًا، والبادي هو أن دور النشر، والكتب، والمبدعين، والمثقفين... هم من أهل الحضور الكبير من بين رواد معارض الكتب؛ لأن الكاتب يسعى إلى نشر مؤلفاته في هذا الدار المزدهرة، صاحبة الاسم والشهرة، ودور النشر تسعى باحثة عن أعلام الكتابة والإبداع لتستحوذ عليهم، ليكون لها الخطوة في عيون أهل النقد، والإعلام، والجوائز الكثيرة، متعددة الاهتمامات والتخصصات والتوجهات.

وكل هذا مهم وضروري، بل جوهري لتفعيل العلاقة ما بين ثلاثة أطراف تتمثل بالكاتب، وصناعة الكتب، ومقنيها، ومن أجل هذا التفعيل لا بد من تعزيز الاهتمام بهذه الأطراف الثلاثة ورعايتها وحمايتها، والسؤال عنها؛ لأننا نرى، وفي كل موسم لمعارض الكتب، اختفاء دور نشر كانت موجودة أو معروفة، أما سبب غيابها فلا أحد يسأل عنه، وهو في الغالب الأعم سبب اقتصادي؛ ونرى أيضًا غياب أسماء أدبية معروفة ومشهورة عن معارض الكتب، أما الأسباب فهي كثيرة، ولعل أبداها هو أن هذه الأسماء لم تُدعَ لحضور فعاليات معارض الكتب، ونرى أيضًا أن القدرة الشرائية لرواد المعارض باتت متدنية جدًّا؛ لأن الإمكانيات الاقتصادية باتت مهمومة بالشأن المعيشي؛ لهذا لا بد من الاهتمام والرعاية والسؤال عن هذا الثالوث الذي يقف وراء الإبداع وتجلياته، والمثاقفة وأهميتها مع الآخرين.

أمر آخر يُلاحظ غيابه أيضًا في أجنداث المشرفين على معارض الكتب، وهو الممثل في عدم اختيار نجم إبداعي صاحب امتياز وحضور ومكانة، ليكون علامة شارقة من علامات معارض الكتب، وهو أمر على غاية من الأهمية؛ لأن الكتاب والمبدعين لهم قلوب أطفال، يعيشون حياتهم كما يعيش الأطفال حياتهم، فهم بحاجة إلى رعاية واهتمام وسؤال عن فعلهم الكتابي والإبداعي، لهذا فإن التعزيز هنا ضروري جدًّا؛ لأن الكاتب المبدع بحاجة لأن يكون خبرًا طالعًا في هذا المعرض أو ذاك، وهذا التقدير سيكون هو مرجعية لأعماله وإبداعاته الجديدة، والمحفز لها.

بلى، معارض الكتب هي ثروة الذهب الحقيقي، وهي مرآة الثقافة لكل حيز جغرافي، وكل مجتمع، إنها مرآة تتجلى فيها خصوبة الإبداع، وحنق الصناعة، وعشق المعرفة، وجمال المثاقفة!

Hasanhamid5656@gmail.com

فيما مضى، كانت العرب تتباهى بالكتب، والنساخ، والمترجمين، وصنّاع الكتب، مثلما كانت تتباهى بالنقاد، والشعراء، وأهل الخطابة، والبلاغة، وعلوم اللغة عامة، فجعلت لها المواسم التي لا تنتهي إلا بالخلاصات الثقال التي كانت ترسم رؤى لتطوير الثقافة، وبكل وجوهها، وما تسعى إليه من أحلام وطموحات!

وكان أهل الإغريق، وأهل البحار عمومًا، وأهل مصر، يفرحون بمواسم الكتب ويسمونها أعيادًا، وقد كانت ظاهرة اجتماعية تهيم كل بيت، وكل حي في المدائن الإغريقية والمصرية، فتردحم الأروقة، والخيام، والعرائش، والدور بالكتب المنشورة أمام أنظار الناس، وكانت تحمل إلى البيوت؛ لأنهم عدّوا وجود الكتب في البيوت نعمة باركتها الآلهة. وقد كانت مواسم الكتب، وهي مواسم ثقافية، تلخص قيمة المعرفة ودورها، وتكشف عن موضوعات جديدة، وتوجهات جديدة، وأسماء جديدة حالفها الحظ فكانت من أهل المواهب الجديرة بالتظهير. وقد كانت القبائل، في أحيازها الجغرافية المتباعدة، تتباهى بأبنائها الذين حظيوا بالتقريظ والثناء، فنالوا المعروفة والشهرة بين أهل الإبداع والمعرفة؛ لأن هؤلاء المحظوظين بالموهبة هم سباق القبيلة، وهم حراس قيمها، وهم عقلها ولسانها.. وجهة الإعلام فيها.

كما كانت مواسم الكتب رويدًا جاذبة لمواسم أخرى، وغالبيتها مواسم اقتصادية توازي في أهميتها وحضورها أهمية الكتب وحضورها، وكان السؤال يدور في هذه المواسم ليس حول كتاب فلان، أو مدونة فلان، سواء كان منسوخًا أو محفوظًا في الذاكرة، وحسب، وإنما كان السؤال يدور حول الحياة عامة، ومنها الحياة الاجتماعية، وما فيها من عادات وتقاليد وأعراف وتصورات، وبذلك كان الكتاب بوابة يدخلها المرء ليعرف المجتمعات الأخرى، وما تحرص عليه من قيم، واهتمامات، وما تنشوف إليه من رغبات وأحلام.

وقد كانت مواسم الكتب، وفي كل عام، تخص أديبًا أو خطيبًا أو كاتبًا أو شاعرًا.. بالخطوة والمكانة، ليكون هو نجمة الموسم، فيدور الحديث عنه حتى تترك أهمية ما كتب، وأنشد، ورأى، وكانت بعض كتاباته تنسخ مرة أخرى خلال أيام العرض، وتعلق أو توزّع أو تقتنى، وكان النساخ يلزمون عرشهم وخيامهم، وهي مجاورة للعرش والخيام التي تعرض فيها الكتب المنسوخة، مثلما كان أهل صناعة الكتابة يعرضون أدوات الكتابة ومستلزماتها من أوراق، وأحبار، ورقع، ورياش، وأقلام. وبذلك رافقت المعرفة المبتوثة في الكتب صناعة الكتاب، بدءًا من صورتها على شكل مخطوطة، أو صورتها المحفوظة في الذاكرة، إلى نسخ الكتاب ليصير جاهزًا ومتاحًا للتداول والاقتناء، وهذه صنعة ستحيط بها صفات، منها الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، والإعلامية.. التي تنشر الأخبار والمرويات حول الكتب المهمة المتوافرة، أو النصوص المهمة التي تنسخ تودًا في أيام مواسم الكتب لدى النساخ، فور أن يبوح بها أصحابها! أما أخبار مواسم الكتب وعناوينها، فكانت محمولة على السنة التجار وهم يتنقلون ببضائعهم من مكان إلى آخر؛ لهذا ما كانت مواسم الكتب العربية خاصة بأبناء العرب وحدهم، بل كان يأتي إليها المهتمون بالكتاب من كل أنحاء الدنيا، من عجم وروم وأعراف مختلفة، وهؤلاء كانوا يأتون عبر قوافل، وهم يحملون كتبهم المكتوبة بلغات



مواطنون يتفقدون الدمار جراء القصف الاحتلالي الذي استهدف شقة سكنية في مبنى غرب مدينة غزة. (وفا)

سؤال عالماشي

موفق مطر

هذا السؤال لقادة حماس

اتخذ قادة الفرع المسلح لجماعة الإخوان القطبيين، المسمى "حماس"، مليوني مواطن فلسطيني في قطاع غزة بمثابة غاية بشرية للتخفي والاحتواء. فالأنفاق لعسكرها بُنيت تحت شوارع المدن والبلدات والمخيمات، فالتقطت منظومة الاحتلال بجيشها وحكومتها هذا الأمر، واتخذته مبررًا لإطلاق حملة الإبادة لتدمير الحياة ومقوماتها في قطاع غزة. ورغم مضي أكثر من ألف ومئة وخمسة وتسعين يومًا (1195)، فإن تكتيكات مسلحي حماس لم تتغير، فمعظم قادتها العسكريين في الصف الأول والثاني وحتى الثالث استُهدفوا في تجمعات مدنية، أو في بيوتهم! فتقضي عائلاتهم معهم، بما فيهم أطفالهم الأبرياء، وكانهم لم يعلموا يومًا طبيعة وتعاليم الصهيونية الدينية التي لا تفرق بين طفل وامرأة وشيخ وعجوز ومسلح، فهذا معلوم لكل فلسطيني بالتعلّم أو عبر حكايات النكبة الموروثة.

لا مبرر لجهل الذين لا يقرأون التاريخ، ولا يستخلصون الحكمة من أحداثه، ولا أولئك المصممين على الاستهانة بجبروت وطغيان حكومة الثلاثي الصهيوني الديني بقيادة نتنياهو؛ لذلك نذكرهم ببعض جذور الإرهاب والجريمة ضد الإنسانية المتأصلة لدى جماعات ومنظمات الصهيونية الدينية، التي كان من المفترض أن تكون في ميدان بصيرة قادة حماس، الساسة منهم والعسكريين. أما مراكزها ومؤسساتها الإعلامية الخاصة والمساندة بمليارات الدولارات، وتلك المخصصة لما يسمى الدراسات والأبحاث، فلم تبصر إلا أمرًا واحدًا، هو: كيفية تكريس الجهود وقدرات ومقدرات الجماعة وقرعها (حماس) لتدمير المشروع الوطني الفلسطيني، دون الانتباه واليقظة تجاه المشروع الصهيوني الديني الذي ما زالت دولة الاحتلال والاستعمار الاستيطاني والعنصرية (إسرائيل) عموده الفقري الأقوى.

ففي عديدها الشهريين مايو/أيار ويونيو/حزيران من سنة 2009، نشرت مجلة «مومنت» (Moment) الأميركية – ذات توجهات يهودية خالصة – التعاليم ذاتها التي تبنتها المنظمات الصهيونية الإرهابية، ومنها (الهاغانا) و(الإرغون)، منذ إنشائها على أرض وطن الشعب الفلسطيني (فلسطين)، لتنفيذ استراتيجية رئيس المؤتمر الصهيوني هرتزل، الذي دعا لتطبيق حملة "تهجير"، ولكن بالقتل والمجازر الجماعية التي كان ضحاياها نساء وأطفالًا وشيوخًا قبل الرجال والشباب. فهذا الحاخام "مانيس فريدمان" يفصح صراحة عن فحوى مفاهيم الصهيونية الدينية حول الطريقة التي يجب – بمفهومه – على اليهود في فلسطين المحتلة التعامل بها مع الفلسطينيين، بقوله للصحيفة أثناء اللقاء: "إن الطريقة الوحيدة لخوض حرب أخلاقية هي الطريقة اليهودية: دمّر أماكنهم المقدسة، واقتل رجالهم ونساءهم وأطفالهم ومواشيهم.. فأنا لا أؤمن بالأخلاقيات الغربية!"

نستذكر هنا خطابًا لعضو مكتب سياسي حماس، شغل منصب وزير الداخلية في حكومتها، وهو فتحي حماد، الذي فرّ إلى بلاد بعيدة عن فلسطين، ولم يظهر على أرض غزة منذ 7 أكتوبر 2023، حيث قال فيه: "سنبقى نقاتل حتى آخر طفل فينا!" وقال أيضًا، متعهدًا بتوجيه ضربة لجيش الاحتلال: "إذا دخل جيش الاحتلال فإنه سيواجه نساء وأطفالًا بأحزمتهم الناسفة!" والمصيبة في الوعي الفردي والجمعي لدى قادة حماس هو هذا الاستخفاف بالنفس البشرية التي قدسها الله وفرض إحيائها لا قتلها أو رميها في التهلكة. فقد سمعنا كثيرًا من هؤلاء، وبأس من استذكار قول رئيس المكتب السياسي لحماس الأسبق موسى أبو مرزوق، عندما سئل عن جدوى أنفاق حماس في قطاع غزة، ما دام المدنيون الأبرياء هم الضحايا الأعظم في حملة الإبادة التي شُنت عليهم منذ السابع من أكتوبر 2023، إثر هجوم حماس المعلوم بهذا التاريخ، فهو قد قال: «إن الأنفاق بُنيت لقادة ومقاتلي حماس، أما المدنيون فإن دولة الاحتلال (إسرائيل) ووكالة غوث اللاجئين الأونروا تتحملان المسؤولية عنهم، باعتبار أن 75٪ من سكان غزة من اللاجئين»!

واليوم نعيد صياغة السؤال لقادة حماس، وعلى رأسهم أبو مرزوق ذاته – رغم انعدام قناعتنا بمبرراته الخارجة على مبادئ الإنسانية وقواعد وسلوكيات النضال والقتال الوطني – ونسأله: لماذا يلجأ مسلحو حماس، ومنهم قادة بمراتب متقدمة جدًّا، يعلمون يقينًا أنهم مستهدفون إلى مراكز إيواء النازحين؟ ولماذا يعودون إلى بيوتهم ويجلبون خطر الموت لأطفالهم ونسائهم؟ ألا يدركون تقدم أجهزة الاستطلاع والتجسس الإسرائيلية، ودقتها وقدراتها التدميرية المباشرة؟ ثم لماذا يستهينون بحياة عائلاتهم وبمن حولهم من الأبرياء؟!